عيد الدَّنح

نظر حضرة القس بطرس نصري الكلداني (تتمَّة)

٢

قلنا ان عيد الدنح يشير ايضاً الى ظهور المسيح العلنيّ للعالم بواسطة عماده. وذلك ان السيد المسيح لدى بلوغهِ سنة الثلثين من عمرهِ اتى الى الجليل الى يوحنّا ليعتمد منهُ في الاردن (متى٣). وقد تعمَّد لاسبابٍ منها لكي ينقّي ويطهّر المياه بجسدهِ فتحصل بهذه التنقية على قوَّةٍ وفاعليَّةٍ لتطهير المعتمدين بها. ثم لانهُ ولئن كان هو الطهارة والنقاوة بالذات ولم يعرف الخطيَّة قد اخذ طبيعةً شبيهةً بجسد الخطيَّة. فاراد بعمادهِ الذي لم يكن محتاجاً اليهِ لان يغطّس طبيعة الجنس البشري كلها المحتاجة الى تطهير الماء. واخيرًا لكي يعمل هو ما أمر الجميع ان يعملوهُ. لذلك قال (متى٣: ١٥): «هكذا يجب ان نكمّل كلّ البرّ»

ولا يخفى انهُ انما عمل هو ما أمر الجميع ان يعملوه لا لكي نعتمد نحن الآن بعماد يوحنا كما كان شعب اليهود يعتمد بهِ (لوقا ٣). لان هذا عماد يوحنا كان يجب التعاوُدُ اذ لم يكن لهُ قوَّة تحويل النعمة. بل لكي نعتمد بالعماد الذي رسمهُ المسيح لمغفرة الخطايا. لان كل تعاليم واعمال يوحنا المعمدان كانت استعداداً وتأهباً لرسوم المسيح. اما النعمة فكان يجب تحويلها للناس بالمسيح الذي وجب بهِ النعمة والحق (يو ١: ١٤). والفرق بين عماد يوحنا وعماد المسيح هو ان عماد يوحنا ولو كان قد رُسم من الله (لو ٢٠: ٤). الّا ان مفعولهُ كان من يوحنا ولذلك سُمّيَ بهِ اذ لم يكن يفعل اكثر مما كان يفعلهُ يوحنا وهو غسل الجسد الذي كان رمزًا عن غسل النفس من الخطيَّة وخاصَّةً الاصلية بقوَّة النعمة التي يحوّلها فقط العماد الذي رسمهُ المسيح. وعليهِ فكان عماد يوحنا ليمدّ الناس فقط الى النعمة: اوّلاً بتعليم يوحنا الذي كان يقتادهم الى الايمان بالمسيح. ثانياً بتعويدهم على طقس عماد المسيح. واخيرًا بالتوبة مُعدًّا اياهم لاقتبال مفعول عماد المسيح. ولذلك قال (متى ٣: ١١): «انا اعمدكم بالماء للتوبة وهو يعمدكم بالروح القدس»

ومن ثم ينتج ان الذين عُمّدوا بعماد يوحنا كرُسل المسيح كان يجب ان يُعمّدوا بعماد المسيح الذي هو وحده مخوّل النعمة ويطبع فيهم سمةً لا تُمحى تميّزهم عن غيرهم كما قيل (يو ٣ : ٥) : « من لم يُولد من الماء والروح لن يقدر ان يدخل ملكوت السماء » . اما المسيح فلم يُعمّد بالعماد الذي رسمهُ بل بعماد يوحنا الذي كان بالماء لا بروح القدس . لان المسيح لم يكن محتاجاً الى العماد الروحي لمغفرة الخطايا . لانهُ كان ممتلئاً من نعمة الروح القدس منذ الحبل به . ولذلك قد أخّر عمادهُ الى السنة الثلثين من عمرهِ ليس فقط ليبيّن انهُ لم يكن محتاجاً الى العماد بل لانهُ اراد ان يبتدئ حالاً بعد عمادهِ ان يعلّم ويكرز الامر الذي كان يقتضي عمراً كاملاً

اما كون المسيح قد اختار العماد في نهر الاردن (مرقس ١) فليس ذلك دون سرّ . لان نهر الاردن دخل بهِ بنو اسرائيل الى ارض الميعاد . ومن شأن العماد الذي رسمهُ المسيح وخاصّتهِ ان يدخلنا الى مملكة الله والكنيسة المشار اليها بارض الميعاد . ولذلك قيل (يو ٣ : ٥) : « من لم يولد من الماء والروح لن يدخل ملكوت السموات » . ثم ان ايليا قسم مياه الاردن حينما اختُطف الى السماء بركة ناريّة (٤ ملوك ٢ : ١١) . وبذلك اشارة الى ان الداخلين بماء المعموديّة يتهيّأ لهم الطريق الى السماء بنار الروح القدس

هلمّ الآن نبحث عن معنى افتتاح السماوات في اثناء عماد المسيح وكيف نزل الروح القدس عليهِ بصورة حمامة والى ماذا يشير صوت الآب القائل : « هذا هو ابني الحبيب » . فنقول :

ان المسيح اراد ان يُعمّد لكي يقدّس بمعموديهِ العماد الذي نتعمّد بهِ نحن . ولذلك يجب ان يبيّن عماد المسيح الاوصاف المختصّة بفاعليّة عمادنا . فالوصف الاوّل هو قوّة الفاعل الاول السماويّة . ولذلك انفتحت السماوات للمسيح بمعموديهِ . الثاني ايمان الكنيسة والمتعمّدين الذين يعترفون بالايمان . ولذلك سُمّي العماد سرّ الايمان . فانفتحت السماوات لاننا نرى بالايمان السماويّات التي تفوق الحس والعقل البشري . الثالث كون العماد هو الطريق الى السماء لان بهِ يتهيّأ لنا الدخول الى مملكة السماء . فانفتحت السماوات بعماد المسيح

ولا يخفى ان افتتاح السماوات لم يتمّ بفصل او شقّ العناصر . لان الاجسام السماويّة غير قابلة التأثير والكسر ولكن بنظر الاعين الروحيّة كما ان حزقيال النبي ذكر في

بداية كتابه ان السماوات قد انفتحت. لانهُ نوشقّت او كُسرت الاجسام السماوية بانفتاح السماوات لرآها الجميع مفتوحةً. والحال انهُ يُقال (متى ٣ : ١٦) : « انفتحت السماوات لهُ » اي المسيح. وكذلك نقرأ (مر ١ : ١٠) : « انهُ حالما صعد من الماء رأى (هو لا غيره) السماوات مفتوحةً » . وهذا الانفتاح يمكن فهمهُ عن رؤية حسّيّة وعقليّة معاً اعني ان المسيح ولو كان يعرف قبلاً وينظر كلّ شيء. الّا انهُ بعد تقديس العماد قد رأى السماء فعلياً مفتوحاً للناس . لانهُ ولو كان يجب ان يفتح لنا السماوات بآلامهِ كما بعلّة عموميّة . الّا انهُ يقتضي للدخول الى السماء تطبيق هذه العلّة العموميّة او آلام المسيح على كلّ واحدٍ من البشر لكي تفتح لنا السماوات. وهذا يتمّ بالعماد ولذلك يقال (رومية ٦ : ١٤) : « نحن الذين اصطبغنا بيسوع المسيح قد اصطبغنا في موتهِ »

ثم كون الروح القدس قد نزل على المسيح في اثناء عمادهِ فهذا امر يختصّ بسرّ كل المؤمنين الذين يقتبلون العماد . لان المعمّدين ان لم يُقدموا اليهِ بالحيلة والخداع يقتبلون هم ايضاً الروح القدس . كما قال يوحنا عن المسيح (متى ٣ : ١١) : « يعمّدكم بالروح القدس » . ولا يخفى ان نزول الروح القدس بصورةٍ منظورة على المسيح في اثناء عمادهِ هو مثال ونموذج لما يتمّ في عمادنا ولو ان الروح لا يزال منظوراً في عمادنا الّا انهُ يحلّ علينا بسوع غير منظور لان الظهورات الحسيّة كانت في بادئ الامور الروحيّة ضروريّة لخير الذين لا يقدرون ان يفهموا كنه الطبيعة الغير الجسديّة لكي يقبلوا الايمان ما بعدُ بنزول الروح القدس على عمادهم نزولاً غير منظور كما تمّ يوماً بنوعٍ منظور

ولا يخفى ان لنزول الروح القدس على المسيح بصورة حمامةٍ ولا بصورةٍ أُخرى اسباباً مهمّة منطبقة وموافقة لهذا السر اولاً نظراً للاستعداد الذي يُطلب من المعمّدين الى ان يتقدّموا ببساطة قلب دون غشّ وخداع كما هو شأن طبع الحمامة وبسمتها . ثانياً للاشارة الى سبع مواهب الروح القدس اعني الحكمة والمشورة والفهم والقوّة والعلم والتقوى وخوف الله التي تنطبق انطباقاً كاملاً على خواص الحمامة وصفاتها . ثالثاً نظراً للمفعول الخصوص بالعماد وهو غفران الخطايا والمصالحة مع الله . وكما ان الحمامة قد عادت الى سفينة نوح وفي فيها غصن الزيتون الذي هو علامة وبشارة السلام بعد غسل الارض من خطايا البشر بمياه الطوفان العرموم كذلك نزل الروح القدس بصورة حمامة مبشّراً البشر بغفران الخطايا بغسل الماء وبالمصالحة مع الله . وايضاً للاشارة

الى مفعول العماد السرمي وهو تقويم الوحدة البيعيّة . ولذلك قيل عن المسيح (اف ٥ : ٢٧) : « أعطى نفسهُ ليقيم لذاتهِ كنيسةً مجيدةً لا عيب فيها ولا غضن ولا شيء يشبه ذلك منقيًا اياها بغسل الماء بكلمة الروح » . ومعلوم ان الحمامة هي حيوان صدوق مخلص مُحبّ للائتلاف . امّا كون الروح القدس قد حلّ على التلاميذ بصورة نار فلكي يُبيّن لنا انهُ بعد ان تنقّاهم بغسل الماء يريد ان يضرمهم ويحمّي ذنوبهم بحرارة الايمان فينذروا بالمسيح بين ضيقات الاضطهادات

ويجب ان نلاحظ ان الروح القدس قد نزل على المسيح بصورة جسديّة لا كأن جوهر الروح القدس الغير المنظور بدأ ان يُنظر . ولا كأنّ تلك الحمامة او الخليقة المنظورة قد اتّحدت بأقنوم الروح القدس الالهيّ كما اتحد كلمة الله بالطبيعة البشريّة . لانهُ لا يقال قط ان الروح القدس هو حمامة كما يقال ان ابن الله هو انسان لسبب الاتحاد . فيجب القول ان الروح القدس نزل على المسيح بزيّ حمامة خُلقت اوانئذٍ لتلك الغاية امّا لسبب اعتبار مزيّة الحمامة المشيرة الى الروح القدس وهي نازلة على المسيح كما سرّ الكلام . واما لسبب اعتبار النعمة الروحيّة التي تصدر من الله بطريق النزول الى الخليقة . كما قيل (يع ١ : ١٧) : « كل عطيّة صالحة وكل موهبة كاملة هي من فوق نازلة من ابي الانوار »

ولنختم الآن كلامنا بظهور الآب بزيّ صوت في عماد المسيح . ولنتذكّر ما قلناه في بدء هذه اللمعة ان لاهوت المسيح لم يظهر للجميع في ولادتهِ الجسديّة ظهورًا علنيًا بل ظهورًا مختفيًا وذلك للبعض فقط . ولكن حينما بلغ عمرًا كاملًا قد أعلن في عمادهِ لاهوتهُ بشهادة الثالوث الاقدس . لان عماد المسيح الذي هو نموذج عمادنا يجب ان يبيّن ما يتمّ في عمادنا . والحال ان عمادنا انّما يتمّ ويُقدّس باستدعاء الثالوث الاقدس وقوّتهِ كما قال المسيح (متى ٢٨ : ١٩) : « اذهبوا وعلّموا كل الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » . ولذلك قد ظهر الثالوث في عماد المسيح فانّ الابن ظهر بطبيعتنا البشريّة والروح القدس بصورة حمامةٍ وسُمع صوت الآب يشهد لابنهِ قائلًا : « هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررتُ » . ولا يخفى ان الصوت الذي بهِ أعلن الآب نفسهُ في عماد المسيح قد صُوّر بفعل الله او الثالوث الاقدس كما ان تصوير الحمامة والطبيعة البشريّة التي اتّحد بها الكلمة الالهي قد تمّ بفعلهِ ايضًا .

ولذلك لن يعلن الآب بالصوت الا بما انهُ مُبدع الصوت او المتكلم بالصوت . من حيث أنَّ من خاصَّة الآب إصدار الابن او الكلمة . وهذا الاصدار هو عبارة عن النطق او القول العقلي لذلك كان جديرًا بالآب ان يعلن بالصوت الذي يعني الكلمة . وهذا الصوت الصادر من الآب هو كنايةٌ عن إعلان لبنوَّة الكلمة الازليَّة . وكما ان صورة الحمامة ليست طبيعة الروح القدس وليست الطبيعة البشريَّة طبيعة الابن الاصليَّة كذلك هذا الصوت ليس طبيعة الآب المتكلم بل هو من خلقته

وفي هذا المقام وبمناسبة عيد ظهور يسوع المسيح مخلصنا للعالم علينا ان نرفع عقولنا الى السماء متأملين في المحبَّة الالهيَّة التي بها اعلن لنا ربُّنا اسراره الفائقة طور العقل البشري وخاصَّةً سر الثالوث الاقدس المتعالي على كل وصف ونشكر جودته العظيمة التي اخرجت الجنس البشري من ديجور الضلال وظلام الموت الى نور الحيوة مكرِّرين مع بولس الرسول (رومية ١١ : ٣٣) : « يا لعمق غنى الله وحكمتهِ وعلمهِ . ما أبعد احكامه عن الادراك وطُرقه عن الاستقراء . من عرف فكر الرب ومن كان لهُ مشيرًا ومن سبق فأعطى لهُ فيُكافأ . لان كلّ شيء هو منهُ وبهِ واليهِ فلهُ المجد لدى الدهور آمين »

المُكْحلــة

توطئة

نقلنا هذه المقالة عن كتاب مخطوط في مكتبة احدى مدارس البلدة وهي مدرسة الروم الارثدكس المعروفة بالثلاثة اثمار . وقد سبق لنا وصفهُ في العام المتصرم وعنهُ اخذنا المقالات الثلاث في الآلات المنفّسة (المشرق ٩ : ١٨–٢٨) ومقالة بني موسى في الآلات المزمّرة (٤٤٤–٤٥٧) وسماً ورد في هذا المجموع النفيس رسالة في المكحلة لابي محمَّد عبدالله بن قاسم الصقلّي . وان سألت ما هي المكحلة اجبنا انَّ المكحلة في اللغة وعاء يُجعل فيهِ الكحل . ليس لها في المعاجم اللغويَّة معنًى آخر وقد استعمل كتبة القرون المتوسّطة لفظة المكحلة لآلة كانوا يعملون فيها الحرَّاقات والقنط (feu grégeois) يلقون بها على العدوّ (Journ. As., 1850 p. 248) ولها في هذه الرسالة معنى ثالث لم نجد لهُ اثرًا في كتاب اخي الساعة الشمسيَّة (cadran solaire) يتَّخذونها لمعرفة اوقات الصلاة برصد الشمس وظلّها . وللعرب لفظة اخرى اشبع منها وهي المزوَّلة قال في التاج انها آلة للمنجّمين يُعرف بها زوال الشمس قدماها صاحب المقالة مُكحلةً لشبه طلبها بالمكحلة